الحضارات بين الصدام والحوار

(شروط ومتطلبات الحوار الثقافي)

مونيس أحمد

ماجستير فلسفة سياسية معاصرة، قسم الفلسفة جامعة وهران

في العالم الحديث وربما كان القوة المركزية التي تحرك البشر وتحشدهم".[1]

في القرن الواحد والعشرين البشر خائفون فالحياة أصبحت محفوفة بالمخاط، الخوف تغلغل في الجانب الاجتماعي والاستقرار الثقافي ليلامس كل هوية، خوف من الآخر لأن الأعداء يشكلون تهديدا مروعا، وفي مقابل ذلك العالم الغربي أصبح أكثر أمنا بعد فقدان العدو العملاق أي **الاتحاد السوفييتي** (الشيوعية) فلا حرب تتهدد هذا العالم و لا صراعات نووية تقف مباشرة عند أبواب البيوت إلا أن الحياة و العالم الاعتيادي لم يغدوا أكثر أمنا.

فقد تصدعت أمور كثيرة ولم يحدث ذلك من خلال انتهاء أزمة الشرق والغرب نفسها، ولكن من خلال العملية ذاتها التي أدت إلى هذه النهاية.التشابك العالمي المتنامي للاقتصاد والتسارع التجاري المالي والتدفق الاتصالي المرتبط به لم تعد الحياة اليومية مثلما كانت عليه سابقا و بات المستقبل غامضا .

هذا الإشكال دفع **بهنتغتون** إلى محاولة فهم وتأصيل جذور الصراع. لقد كتب هنتغتون مقالته بعنوان صدام الحضارات سنة 1993م والتي نشرتها مجلة شؤون خارجية، وطورها لاحقا في كتابه الشهير " صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي " ضمنه عرض النموذج الأمثل لصدام الحضارات الذي أصبح عين التعريف المحدد لطبيعة سياسة النظام العالمي الجديد خلال القرن الواحد والعشرين.عبر فيه أن البعد الرئيسي والأكثر خطورة في السياسة الكونية الناشئة سيكون الصدام بين جماعات من حضارات مختلفة كما تطرق فيه هنتغتون لتوضيح وشرح الصراع موضحا ذلك بشروح ومنحنيات وكذا توضيح العلاقات بين الدول. ومنه الصراع الحضاري كما يراه هنتغتون " لن يكون أيديولوجيا أو اقتصاديا، بل سيكون الانقسام الكبير بين البشر والمصدر الغالب للصراع ثقافيا ...فكان قديما بين الملوك والأباطرة، ثم بين الشعوب (الدول القومية)، ثم بين الإيديولوجيات ولكن بعد انتهاء الحرب الباردة سينشب الصراع بين الحضارات مع حلول النظام العالمي الجديد فما يهم الناس ليس هو الأيديولوجية أو المصالح

الاقتصادية، بل الإيمان و الأسرة و الدم و العقيدة فذلك هو ما يجمع الناس وما يحاربون من أجله ويموتون في سبيله، فالدين محوري، فبعد القضاء على آخر عدو ظهر على المسرح العالمي (العراق) دخل الغرب مرحلة البحث عن عدو جديد يحقق ويؤكد التفوق والمركزية. فأتت أحداث 11 سبتمبر 2001م لتؤكد الأطروحة الهنتغتونية هواجس الخطر القادم (إرهاب الإسلام/ الإسلام فوبيا) فتاريخ الحضارة عند الغرب هو تاريخ التمايز بينه كجنس أبيض متحضر وبين بقية العالم كأجناس وأعراق وبرابرة وهمج. تمايز اختلقه الغرب ليبرر حملاته الاستعمارية العدوانية ضد الشعوب الأخرى سواء لاستعمار البلاد أو للاتجار في أهلها رقيقا أو استنزاف ثرواتها. ووجد في هذا المفهوم مبررا يبرئ نفسه من آثامه بل كما اعتاد أن يدعي دائما أنه استعمر هذه الشعوب لينقلها إلى الحضارة أي لمحاكاة الغرب وإن كانت في نظره ونظرياته أعجز عن ذلك بحكم طبيعتها وجيلتها.

إن ماهية الصراع الحضاري تفهم في ظل نقاشات فكرية حول ماهية الصراع في حد ذاته فهو السبيل الوحيد للكشف عن الحقيقة حسب **هيرقليطس**. الذي يعتبر أول من قال بالتغيير والصيرورة المستمرة وصراع الأضداد، يجعل من هذا الأخير في الوجود الكيفية الميتافيزيقية الأولى كطرح قديم في الفكر الإنساني.

فالصراع في تاريخ الفلسفة يفهم في ظل تصور تقليدي وتصور حديث. تصور تقليدي يمثله كل من **هيجل** و الجدل الفكري مع **كارل ماركس** من أن الحضارة في صراعاتها تتطور إلى الأحسن. والتصور الحديث يمثله النقاش الفكري بين **فرنسيس فوكوياما** و**صموئيل هنتغتون** من أن الحركة المضطردة للحضارة في تطورها إلى الأحسن. فدراسة الصراعات الحضارية في مرحلة العولمة يغلب عليها النقاش النظري في ظل غياب نماذج واضحة عن هذه الصراعات لأن الصراع الحضاري ما هو إلا نموذج من نماذج الدراسات المتعددة.

وعليه فكرة وحيدة تمخضت عن أطروحات أو نظريات الصدام منذ الفلسفة الأولى إلى غاية فكرة صدام الحضارات لصموئيل هنتغتون هي أن العالم ينقسم إلى عالم غربي واحد وكثرة من العوالم غير الغربية أو هو الغرب والآخر. ومن هذا المنطلق تظهر الذهنية الأمريكية التي يصفها "**جون جراي**" والمعيار الذي يستخدمه هنتغتون ضمنا في أغلب الأحوال إنما يعكس الفكرة الأمريكية المتسلطة بشأن تعدد الثقافات. فالثقافة أو الشعب يعد حضارة إذا كان له ما لأقلية أمريكية من فاعلية سياسية وفي غير هذه الحالة فهو يتجاهلها"[2] هذا ما فتح باب النقد من طرف فلاسفة ومفكرين عبر أقطار العالم طارحين أفكار ونظريات هي العوض عن الصدام كما تقدم السيد **محمد خاتمي** إلى الأمم المتحدة عام 2001م بفكرة حوار الحضارات. في سياق الرد على أطروحة صدام الحضارات فكانت بالأحرى رد حضاري من طرف رئيس مثقف يتحدث بنبض الثقافة الإسلامية وروح الشرق وبين خبير في دولة لم تتحرر من سبات الهيمنة على العالم . ومنه للحوار الثقافي شروط ومتطلبات من أهمها هو الاستعداد أولا للحوار، فكل ثقافة فيها جانب إيجابي وجانب سلبي وكل حضارة وكل ثقافة تريد أن تتحاور وتتقاطع مع ثقافات أخرى أو تتثاقف مع ثقافات أخرى ينبغي أن نبحث عن هذا الجانب الإيجابي وعن هذه العناصر القمينة بتفعيل هذا الحوار.

وعليه حوار الحضارات يبحث أصلا عن المشترك الإنساني، إذا كان البحث عن المشترك الإنساني يبحث فقط تصبح الغاية غاية معرفية. وقد يؤول هذا في آخر المطاف إلى نوع من العبثية. لأن الهدف من المعرفة أساسا هو صناعة وعي بالحدث الحضاري، وصناعة وعي بالآخر ومحاولة لصالح الإنسانية عامة، هذا من جانب تحديد أولي أما بالنسبة لمتطلبات الحضارة فمعلوم أن الناس لن يشاركوا في وعيهم للآخر، ولن يشاركوا في الصالح العام للإنسانية إلا إذا انطلقوا من ذواتهم الثقافية المستقلة عن الآخر، وكذلك من متطلبات الحوار هو الاعتراف بالآخر كحقيقة مستقلة وإذا اعترفنا بالآخر من هذه الزاوية فينبغي قراءته قراءة موضوعية على وفق ما هو عليه في الواقع، على وفق ما هو متمثل في تصرفات أهله وهذا هو المتطلب المعرفي. أما بالنسبة للمتطلبات الأخرى فأهمها تحديد مقصد واضح للحوار وكذا توفير جو الحرية في اختيار المؤسسات التي تمثل في إقامة هذا الحوار، ومنه حوار الحضارات هو الخلفية الفكرية التي ينتج عنها انسجام الإنسان الذي يعتقد هذه العقيدة وهذه المبادئ وينخرط من أجل المساهمة في صالح الإنسانية العام بالإضافة إلى ذلك يجب أن تكون هذه الخلفية الفكرية أرضية لاكتشاف الآخر، ومن خلال ذلك تترتب علاقته بنفسه وبالمجتمع الذي يعيش فيه ومن ثم علاقته بالآخر وبالتالي مضمون لفظ حوار الحضارات معلوم لدى الجميع، والإشكالية المطروحة ليست إشكالية الصدام بل إشكالية الحوار بمعنى هل نحاور؟ هل نقبل الحوار أم نرفض الحوار؟ هذه الفكرة هي الفكرة المركزية وبالتالي الحوار هو المسلك الوحيد للإنسانية. وعليه العنوان الأنسب للحوار هو الحوار الحضاري بين الثقافات وليس الحوار بين الحضارات لسبب بسيط وهو أنه ليس ثمة حضارات تتعاصر في آن واحد. ربما في قديم الزمن وفي حقب تاريخية متقدمة جدا وبسبب العزلة وبسبب التأخر على مستوى الاتصال، فقديما كانت الحضارات تعيش في آن واحد وتتعاصر مع بعضها، لكن في عصر ثورة الاتصالات لا يمكننا أبدا أن نعيش أكثر من حضارة واحدة، وهذا ما نستخلصه من تعريف ابن خلدون للحضارة، الحضارة هي صناعة القوة وقوة الصناعة، الحضارات لا تتحاور، الحضارات تتناوب وهي تخضع لمفهوم النشوئية بمعنى البقاء للأصلح،[3] وعليه لا يمكن أن نناقش الغرب في الجانب المادي الابتكاري بل نناقشه في تلك الثقافة أو ذلك الاستفحال الذي نتج عن الحداثة وإفرازاتها. فأصبح الإنسان مستلبا في أشيائه وأصبحت علاقته بالأشياء علاقة مأزومة وعلاقة إشكالية. وهذا الموضوع عالجه نقاد حداثيون ينتمون إلى الغرب ومدارسه مثال على ذلك مدرسة فرانكفورت من ماركيز مرورا بهوركيمر وأدور نو إلى يورغن هابر ماس...الذي قال الحداثة مشروع لم ينجز " ومعنى ذلك أن هناك جوانب مهمة جدا في الحضارة الغربية ومن هذه الحداثة يمكن أن نغير كيفيتها لصالح الإنسان. **ابن خلدون** حيثما يتحدث عن الحضارة فإنه يفرق بين الحضارة والبداوة، ولا يصادر على البداوة قيمها وعوائدها. فللبداوة قيم وأخلاق وهذا هو التعريف الثقافي للبداوة ولا يصادر على البداوة قيمها وعوائدها. ومنه حينما نقول حوار حضاري بين الثقافات معناه أننا نملك شيئا ننازع فيه الغرب، ويبدأ هناك

النزاع مع أشياء الغرب وليس مع صميم علاقته بهذه الأشياء. ومنه إذا أردنا أن نفهم الغرب وحضارة الغرب علينا أن نفهم الحداثة وفلسفتها وكيف ينظر الغرب إلى تقاليده الحداثية. وبالتالي الغرب بصفته الغالب و الشعوب الأخرى بصفتها مغلوبة في آخر المطاف لابد للغالب من أن يحاور المغلوب، ولابد للمغلوب من أن يحاور الغالب والعكس كذلك لأن المغلوب يريد أن يرافع عن نفسه ويريد أن يرافع عن مظلوميته، فالمدافعة عن المظلومية تقتضي حوارا بالإضافة إلى هذا دفاعا عن النفس والدفاع عن النفس هو نوع من الحوار. والغالب لكي يسوق بضاعته المعرفية أو سلعته يحتاج إلى محاورة المغلوب بشكل أو بآخر. فالحوار ضرورة إنسانية في أي لحظة من لحظات الصراع أو الوفاق أو التضامن أو التوافق.

الهوامش:

1. صاموئيل هنتغتون "صدام الحضارات ..إعادة صنع النظام العالمي "ترجمة طلعت الشايب، تقديم د.صلاح قنصوه، مؤسسة سطور للنشر والتوزيع ،،القاهرة عام 1998،ص 10
2. جراي جون، الفجر الكاذب ص170 ت:أحمد فؤاد بلبع ص170 ط1. 2001م مكتبة الشروق
3. ابن خلدون عبد الرحمان :المقدمة صس450 دار القلم، بيروت لبنان 1978م .